وفاء العمير

قلب الوردة

وفاء العمير

قلب الوردة

طوى
للنشر والإعلام

Book: Qalb Alwerdah
الكتاب: قلب الوردة
Novel
رواية
Author: Waffa Al-omaiv
المؤلف: وفاء العمير
Cover plate¤ Mohammed Ben Saleh
لوحة الغلاف: محمد بن صالح
First Edition: 2010
الطبعة الأولى ٢٠١٠
All rights reserved
حقوق الطبع محفوظة ©

طوى للثقافة والنشر والإعلام ـ لندن
TUWA MEDIA & PUBLISHING LIMITED
19 TANFIELD AVENUE, LONDON, NW2, UNITED KINGDOM
Email: tuwa@london.com
Tel : 00966505481425 - 009662108111
التوزيع : منشورات الجمل
تلفون وفاكس: ٦٦٨١١٨ ١ ٠٠٩٦١،
ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان
E-Mail: KAlmaaly@aol.com

All rights reserved. Except for brief quotations in a review, this book or any part thereof, may not be reproduced, stored in or introduced into a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means; electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior written permission of the publisher.

كم هو جميل، جميل بإدهاش، وبسيط يوحي بالثقة،
وعميق ومثير، أن تكون تحت الشمس،
بين الناس الآخرين،
مدفوعاً، مخطوفاً، مجذوباً، وعَجولاً، في تفجّر الحياة.
لا يجدر بك أن تبقى على الشاطئ،
كحاجز، أو صدفةٍ في تكلّسها
تحاول أن تشابه صخرة.
بل يَجمُل بك في صفاء نيّة،
أن تنزلق في الفَرح، تنغمس فيه، تضيع،
كي تعثر على ذاتك في الحركة،
حيث قلوب الناس تخفق، متبدّدة

فيثِنْتي ألكسندري
شاعر اسباني

هدوء ثقيل هنا، يشبه رائحة الموت، الرائحة المعجونة بالمقابر، هدوء يفرّغك تماماً، إلا من لحظات صغيرة، دافئة، تعبر أحياناً، في سرعة خاطفة، كي لا تلفت انتباه أحد.

كان يمكن أن أظل أشرب قهوتي، في الوقت نفسه، كل يوم، وأشاهد التلفزيون في مقعدي المعتاد، طوال حياتي، دون أن أشعر بأن شيئاً ما سوف يتغير. لم أفكر بأنني قد أتوقف للحظة واحدة كي أتساءل: ماذا سيحدث بعد ذلك؟

الصمت الذي يحيط بي لاذع، ويتعذر نسيانه، لا تستطيع أن تتخطاه لأنه ضخم وهائل، يسد منافذ الضوء والهواء، وفي نهاية الأمر هو مثل عدد لا يحصى من النمل، يظل يدبّ عليك بشراهة، ولا تملك أن تتخلص منه.

صمت ذكي، أقول ذلك دون أن أشعر بأنني أبالغ، ولو قال لي أحد عكس ذلك لأحرقت لسانه، هو مثل صخرة

ضخمة، تربض، في راحة تامة، على أرضية البيت، وتحتل فضاءه بالكامل.

أحدّق في الفنجان طويلاً حتى يخيّل إليَّ أنه يتحرك. الخشب يطقطق بفجاجة مريبة، الورود في أصيصها الفخاري تكاد تذوي، رغم تفتحها، بطيئة في فرحها البري. الأشجار واقفة في بيوتها البلاستيكية كأن لا معنى لها!

الهواء في المكان هو نفسه منذ سنوات، لم يتغير فيه شيء، لا رائحته، ولا لونه، ولا سحنته. هل قلت بأن الهواء ملَّ منا، وأصابه الاكتئاب؟! تحنط حيث هو، قبل ذلك كان قد داخ، من فرط التخاذل. أكفنا ملمومة على الساعات القليلة المنعشة، وكأنها قطرة ماء أخيرة لا يُراد لها أن تندلق.

أشرب فنجاني الثاني مع قطعة بسكويت بالكاكاو، وأتذكر أننا في نهاية الأسبوع، مساء الأربعاء السعيد. وحيدة في هذا المنزل الخالي، أنا وقطع الأثاث، نتسامر، وأفكر في مستقبلي المجهول، قلقة، وأشعر بأن حياتي رغم ركودها مضطربة.

تخرجت من الجامعة، حصلت على شهادة البكالوريوس في الاجتماعيات، وجلست في البيت. ما من وظيفة يا أختي

قالت لي الموظفة في الخدمة المدنية، كانت سمراء وتضع أحمر شفاه غامق، وترفع شعرها بطوق.

قلت لها وأنا أضغط على أعصابي، ويداي متعرقة، أطالع فوق الطاولة بحثاً عن منديل: تقديري جيد جدا مع مرتبة الشرف.

نظرت إليّ ساخرة: حتى لو كان تقديرك ممتاز ما من وظائف. ولمّا رأتني محبطة قالت لي: اتركي لنا رقم هاتفك نتصل بك.

الأشياء حولي تلونت بالأصفر الباهت، الأصفر المكشوط، المتعرج مثل ملامح الانتظار الساخطة، حين لا تعود تفكر بالأمور المبهجة، التي ترفع درجة السعادة، وكأن الأيام مثل طابور المدرسة الصباحي، طويلة ومتشابهة.

يدور بي البيت مثل لاعب سيرك على دراجة نارية في كرة ضخمة. ووجوهنا تحمل سمات كابية، نحن نشبه إلى حد كبير بيوتنا، جدرانها وأسقفها، أبوابها الكثيرة، الخشبية منها في الداخل، والحديدية في الخارج، في لحظة لا شعورية صرنا وكأننا نرتدي الغرف ونتنقل بها، من الصالة إلى الحديقة، نصعد بها الدرج إلى الدور العلوي، ثم إلى السطح. السطح مغلق هو الآخر، لا أحد فيه سوى خزان الماء، ودش التلفزيون. سطح للحمام، وللطيور، ولحبال الغسيل.

نضع الستائر الحديدية العازلة فوق أسوار البيت خشية أن يتلصص الجيران علينا. الاحتراز المكين، هو لبّ حياتنا، دائرة مناشطنا، خوذة حروبنا، مكرنا القوي، المنيع، لا نسهو، نحن نتعلم أكثر، نبحث عن طرق أكثر حذقاً كي نطوي أنفسنا أشد مما كنا نفعل.

* * * *

كلما عدوت هاربة بأفراحي اللذيذة، كأفراخ بيضاء شقية، كنت أصرخ في أعماقي باحثة عنك. القسوة التي خلفتها وراءك احتلتْ قلبي بالكامل، وشرّعتْ قوانينها الصارمة فيه، لم تسألني رأيي، كنت من الضعف بحيث لم أقوَ على المقاومة، وجدتْ أرضاً سهلة، فأقامت فيها، وسوّرتها بأسلاك شائكة، لا أحد يدخل، ولا أحد يخرج، وكل ما يمكن أن أفعله لا يتعدى تلك الأسوار.

تركتَني للوحدة تخيط حولي جنونها، وأحلامها العاثرة. الدائرة ضاقت عليّ، وأنا أصغر في داخلها، أصغر حتى لا أعود أرى نفسي. تملكتني غربة هائلة، حملتني إلى أبعد ما يكون، إلى اللاحدود، غائبة تماماً، ومهمشة.

ماذا أفعل كي أتخلص من هذا الشعور؟ كيف أدخل إلى الحياة؟ من البوابة الكبيرة للحياة؟ تلك التي نقف جميعاً أمامها مقهورين، منشطرين إلى أجزاء صغيرة، كأننا فتات خبز يابس. كيف أستطيع أن أرى نفسي مجدداً، شبيهة بالاستنارة، بالخطوط البريئة التي يشخبطها الصغار في دفاترهم؟

أنت لم تساعدني، ولم يفعل أحد ذلك، أسلمتني بيد أمينة إلى الريح الغريبة التي كانت حائرة ما تصنع بي!

تُركت وحيدة على حافة بئر قديمة ومهجورة كي أُمسخ كائناً متعفناً، مهرولاً في كل الدوائر المتداخلة، المقتولة، كي أنسلخ عن روحي مرة تلو الأخرى، ومجدداً، أتبدد.

لا أحد يهتم، والدي منشغل بترقب أيامه، كيف تجتمع كالأصدقاء، وتمضي معاً حتى آخر الطريق. تتقزم قامته العملاقة كلما ثقل فيه الحزن والوحدة. لم ينسها مطلقاً، ما زال مسحوقاً بها، مولعاً بذكراها، منتشياً بعبق خلودها فيه، إنه الرجل الذي يسقط مراراً في روح أنثى غائبة، تظلّ تنشط في حناياه، ولا تهمد أبداً.

كيف يتذكرها؟ شعرها الأحمر الغزير برائحة الحناء،

ابتسامتها الهادئة الجذابة، كلماتها الخفيفة، العسلية، التي يراهن على فوزها دائماً قلبُ المكان، ذكاؤها الحاد، حتى أنه كان يرجع إليها في أمور كثيرة، ويجد لديها دائماً الرأي السديد، والقول الصائب.

الوقت يتمشى في خيلاء، طارحاً أمامي كل الأفكار السوداء التي يمكن أن تهدمني، وتسوي أمانيّ بالأرض.
المدى بعيد، بعيد مثل طلقة في الهواء، كأنما يخشى على نفسه مني. الفضاء ليس هنا، لم يعد عندي، حين لم تعد فكرة جميلة، وإحساس مشع يزهر حولي.

سافرتَ حاملاً معك خططنا المشتركة، خططنا البائسة، التعيسة، أحلامنا التي أوهمناها أننا لن نخذلها، أننا سنبقيها حيّة في عروق أيامنا العمر كله، هي الآن مشردة في أزقة وشوارع لوس أنجلوس، تنام على الأرصفة، جائعة، بلا هوية، ولا هدف، تدوس عليها، كل يوم أقدام أربعة ملايين من البشر.

في حين تجلس مرتاحاً في شقتك، ترتشف قهوتك وحيداً، وربما لا تكون وحيداً، تطالع برامج التلفزيون الأمريكي، وكل ما في رأسك يتحول إلى إفرنجي، أو تركض

في الصباح الباكر لتلحق بالمترو، متوجهاً إلى عملك في شركة الإعلانات، لا شيء في ذهنك عني، لا شيء، تلك النملة المعجونة بالأرض، من قد يفكر بها؟ من قد تعني له أكثر من مجرد امرأة ضعيفة، تحتاج دوماً إلى أوصياء عليها.

قلتَ لي «تعالي معي» دون أن يرفّ لك جفن. أجيء معك؟ إلى أين؟ أين أنا من أمريكا؟ أين أنا من بلاد بعيدة وناس أغراب؟ ألا تعرفني؟ أنا جدار خامس في هذا المنزل العتيق، وظننتني سأكون جداراً خامساً في منزلك، تحيط بنا أربعة جدران للوطن!

لا أعرف أن أكون طائراً في غير هذه الشجرة الكبيرة، لو أطلقتني في السماء الواسعة لتهت، ثمة لغة هنا أعرفها، عادات وتقاليد تربيت عليها، تراث أزلي من كل شيء نما بي، وتجذرت به مثل نخلة.

ألم تفكر في كل هذا؟ لكنك لم تفهم، حملت حقيبتك ورحلت من دوني، تركت هذه النخلة، في العراء، وحدها، تتجمد في البرد القارص، ويحرقها الحر اللاهب. لم تمهلني وقتاً، وقتاً يقتضي العمر كلّه كي أكون أخرى غير التي أعتدتُ أن أكونها!

أختك حنان، صديقتي المقربة من أيام الثانوية، قالت لي تواسيني: ما الذي دهاك؟ لا يوجد رجل في العالم يستحق أن تزعلي من أجله حتى وإن كان أخي. قلت لها وأنا أنظر إلى عينيها المكحلتين تنوءان تحت وطأة تأنيب الضمير: ليتني لا أحزن، ليته كان مجرد غبار مسحته عن زجاج حياتي وانتهى الأمر، ليت الذي كان لم يكن. قلت ذلك، ويمكن أن أقول أكثر منه، لكنني وحدي كنت أعلم أن كلامي هذا لم يكن يعني شيئاً، وأن الألم ما زال في قلبي حاداً وشقياً.

هزت رأسها في أسف، وكأنها كانت تنعي صديقتها القديمة، تلك التي كانت تتمشى معها في ساحة المدرسة، وتقلّب معها صفحات ديوان شعري لغازي القصيبي تجلبه معها من البيت خلسة عن أهلها وعن إدارة المدرسة. تبحث عن كلمات الحب والغزل في الأبيات التي تقرأها، تشير إليها بإصبعها الطويل، وتكتم ضحكتها الخجولة. عندما تزوجت لم تسمع مثل تلك الكلمات ينطق بها زوجها، قالت لي في استغراب: الواقع يختلف عن الكتب، وليرتاح بالنا ننسى ما نفتقده، ونعتبر عدم منحنا إياه من المسلّمات!

المرّة الوحيدة التي شعرت فيها بأنها قد وقعت في الحب، عندما كانت في الخامسة عشرة من عمرها. طالبة في ثالث

متوسط، خارجة من المنزل كالمعتاد، في صباح كريه، مكدّر، صباح المدارس الذي هو مثل كابوس ثقيل تظل تحمله على ظهرك حتى تعود إلى البيت ظهرا. كانت ترتدي عباءتها السوداء الطويلة، وتطوّح بالحقيبة في حركات تدل على طفولة لم تخرج من شرنقتها بعد.

نظرتْ إليه لأول مرة، فتى في السابعة عشرة من عمره، يقف إلى جانب سيارة بيضاء عتيقة من نوع كروسيدا، كانت كأنها مشت دهراً بكامله، كلّ جزء فيها يئن صارخاً: انتهت مدة صلاحيتي، أرموني في مزبلة السيارات. لم تر في حياتها مثل تلك السيارة المتسخة، الغبار يغطيها مثل خيمة، وعلى جوانب السيارة، عند الأبواب، كتابات بخطوط رديئة. يضع الفتى غترته التي انقلب لونها إلى الأصفر الباهت على كتفه النحيلة التي برزت عظمتها من وراء ثوبه الأبيض.

فتح باب السيارة، وعندها فقط التفت ناحيتها وابتسم. في تلك اللحظة السريعة، اللحظة التي تركض كمهرة، تنهب البراري، تسابق الريح، كي تصل إلى مكان ما، تجهله، ثم تربض هناك في سكون، إلى ما لا نهاية.

كانت حنان مثل عصا الخيزران تستند إلى جدار بيتهم

الطيني المشقق بانتظار أبيها ليوصلها إلى المدرسة. خرجت قبل أن يخرج هو، ولو علم بذلك لصرخ فيها، وللطمها على وجهها المُغطى بغطاء أسود ثقيل.

لم يكن في ذلك الولد ما يلفت الانتباه، حين تتذكر الأمر بعد مضي عشر سنوات تستغرب كيف سمحت لنفسها أن تفكر فيه ولو لثانية واحدة؟!

أعجبت بشعره الأسود الكثيف، وببشرته القمحية، وبشاربيه الخفيفين الذين بدآ على استحياء يرتسمان فوق شفتيه الغليظتين.

تلك النظرة عنت لها الكثير. تفجر في أعماقها بركان مشاعر هامدة. تدفقت الأحلام وردية، لا تعلم كيف حدث هذا؟!
تحلم وهي تغسل الصحون، وهي على السطح، تنشر الملابس على الحبال. تفتح كتاب الجغرافيا لتذاكر، تغرس رأسها فيه، تدخل الكلمات في مخها، المناخ، المساحة، والمحاصيل الزراعية، لكن كل شيء كان يتبخر. الكلمات تختفي، لا يتبقى منها إلا أسطر سوداء مستقيمة، لا تعني شيئاً. كلما حاولت أن تقبض على أفكارها، تملّصت منها، وذهبت إليه، ولا تتمكن من السيطرة عليها.

اعترتها رجفة السعادة. النظرة التي صوبها نحوها في لحظة خاطفة، تجمّدت فجأة لتصير الحياة كلها. قالت لها النظرة ما لم تقلها كل الكلمات. ظلت تحملها معها مثل شيء ثمين تخشى عليه من السرقة أو الضياع.

في المدرسة لم تتحدث كثيراً، رغم كل محاولات صديقاتها في إرغامها على مشاركتهن الحديث عن المعلمة حصة التي تشرح الدرس وكتابها مفتوح، والمعلمة هيا التي تعطي الدرس وهي جالسة على الكرسي، لكن محاولاتهن كانت بلا جدوى، ورحن يتغامزن حولها، مستغربات الشرود الذي طرأ عليها.

في الفصل كانت كالغائبة. تفتح الدفتر أبو سلك، وتمسك بالقلم الأزرق الناشف، وكأنها تمرّره على الأسطر، لكن أفكارها كانت تطارد ذلك الطائر الآسر، الذي اخترق شغاف القلب، واختفى في المدى البعيد، غطّاه الأفق بلمعته الشفافة. ظلت عيناها زائغتين، هاربتين، أو كفراشتين تطيران دون أن تتعبا، أو تشعرا بأنهما يجب أن تحطا في آخر الأمر على شيء ما، أي شيء.

نظرة منه قالت لها إن العالم جميل، والحياة ملونة،

والأشجار منذ الأزل تزهر خلف شرفة القلب، والليل، الليل الطويل قصيدة المحبين، والسهر روح الحيارى.

صادقت أغاني أم كلثوم، بعد أن كانت لا تطيقها: «هو صحيح، صحيح، الهوى غلاب؟ ما أعرفش أنا» وقالت مع عبد الحليم حافظ «أهواك وأتمنى لو أنساك، وأنسى روحي وياك، لو ضاعت تبقى فداك، لو تنساني».

غنّت وهي مستلقية على جنبها، تضع رأسها على كفّها، والراديو المسجل قريب منها، واستمعت إلى قصائد الشاعر الكويتي طلال السعيد العاطفية يلقيها بصوته في شريط كاسيت ودموعها تنهمر من التأثر.

ظلّت تفكر في تلك النظرة التي لم تتكرر، ولم يُكتب لها أن تتحول إلى شيء آخر. نظرة وحيدة، يتيمة، كأنه ألقاها عليها ثم ندم، انسحب ببطء مثل كلب خائف، ولم يحاول أن يجعل منها حكاية.

بعد عدة أيام، وبعد سهر ليالٍ طويلة، والغناء مع أم كلثوم، وعبد الحليم حافظ، وبعد أفلام شادية وكمال الشناوي، بهت مشهد تلك النظرة في خيالها، تصاعدت منه رائحة العفن، تحول إلى مزبلة.

سدّت منافذ خيالها كي لا تدخل تلك الرائحة من أية فتحة فيه. وكلما تذكرت تلك النظرة شعرت بغبائها، وبأنها كانت كأنما ترمي نفسها عليه، فرفعت رأسها عالياً، وهي تمشي في طريق الحياة.

* * * *

ماذا تعرفين عنه؟ سألت نفسي، وكأنني أكتشف سؤالي هذا الآن فقط؟ وكأنه كان طوال الوقت شخصاً آخر توهمته، ورغبت في قرارة نفسي أن يكونه، لكن هل كان هو حقاً من أحببت؟ لماذا لم يكن صريحاً معي منذ البداية؟ لربما وفّر على كلينا لياليَ طويلة من التعب والسهد.

أ كنتِ ستتوقفين عن حبه لو أنه صارحك بما في نفسه؟ هل كنت في ذلك الوقت تملكين القدرة على اتخاذ القرار الصحيح؟

استمرت حنان تعتذر لي لأنها كانت السبب في تعارفنا وتقاربنا، وكدت أن أنهض، وأطردها، لأنها تنكأ جرحي دون أن تدري، وترشّ الملح عليه وهي تنوح، وتربك الحزن أكثر فأكثر.

قالت بصوت تهزمه الدموع، إنها ما كان يجب أن تسمح لبذرة الحب أن تنمو في قلبينا، وأنها كان يجب أن تفعل شيئاً. وكأن الأمر في يدها، وكأنها بواب يحرس عمارة القلوب.

قالت بأنها كانت تعرف أنه سيغادر البلاد عاجلاً أم آجلاً، منذ أن كان صغيراً كان حلمه أن يهاجر! لكنها وجدتني مثل موجة بحر هادر، اندفع نحوه بقوة.

كنت أسألها عنه، وألحّ في السؤال، كلما زارتنا أو زرتها. حاولت أن أعرف منها كل صغيرة وكبيرة تتعلق به. كنت أطيل النظر إلى صورته في البرواز الصغير المذهب الإطار، المعلّق على جدار صالة منزلهم. صورته تلك ترافقني أينما ذهبت، تنطبع أمامي في كل شيء تقع عليه عيناي، وبسهولة تجالسني وتضحك معي.

في أفكاري أجده، داخل أحلامي، تتمحور حوله أحاديثي وإن لم تكن عنه، وكلماته كانت تعني كل شيء أؤمن به، أعيدها في ذاكرتي ملايين المرات ولا أملّ، وفي كل مرة أكتشف في تلك الكلمات حقيقة أخرى من حقائق الحياة، كنت أتعلم على يديه فن العيش باقتدار، أن تحيا ليس كأي أحد، وأن تعيد اكتشاف نفسك، أن لا تكون نسخة مكرّرة عن غيرك، لكن الأمر يبدو صعباً في بيئة كل الناس فيها مثل الكربون.

قلت لها علّني أنجح في أن أجعلها تتوقف عن البكاء، كان وجهها الطويل يتقلص، عيناها ترمشان باستمرار، وكتفاها الضيقان مثل جذعين خفيفين مكسورين: أنت لا ذنب لك، ما كنت لتستطيعي أن تمنعيني أن أحبه.

أكنتُ مثاراً للشفقة إلى هذا الحد؟ وكأن الحياة برمتها قد توقفت عندك، حتى الكلام يضيع مثل طفل حين يصير بعيداً عنك. أ كنت أستحق منك أن ترمي بي هكذا إلى أسئلة تنهشني، وإلى عزلة تأكل أطرافي؟

* * * *

حلمي الغاضب، كل ليلة، يضرب بقبضتيه القويتين جدار قلبي المتهالك، وبعد أن ينهكه الشعور بالعجز وقلة الحيلة، يتكوم على نفسه، مثل قط حزين، وينام.

أجلس على ركبتي، كل مساء، فوق بلاط الغرفة، وعند حافة النافذة، أسند ذقني الدقيق إلى كفيّ الغضين، البيضاوين. وبشغف طفلة تود لو أنها كانت غلالة نهر شفاف، أرسل نظراتي إلى الخارج. وكأسراب طيور محترقة بالضوء، تخترق نظراتي الأفق، وتدخل قلاع النجوم.

يتراءى لي في كثير من الأحيان أنك تختبئ تحت نافذة غرفتي، ملهوفاً تراقبني، من خلف النافذة ذات الفرجة الضيقة، وتعرف أنني مثل الشفق للسماء أنتظرك.

أصغي إليك بقلب يخفق بشدة، وبحنين القصائد لزمن الملاحم البائدة، أصغي إليك تقول لي: إنك مندهش إذ ترقص الكلمات بأقدامها الرقيقة فوق لسانك.
وكنت من فرط سعادتي تظل يدي ممسكة بوردة بيضاء، قطفتها من حديقة المنزل التي بدأت لتوها تظهر وجهها العشبي الجميل، وطوال الليل أمدّها في الفراغ المعتم، أمدّها إليك، طقسا حنوناً، وريحاً أليفة.

«أحبك» قلتها بصعوبة، وكأنما كنت تنتزع شجرة عملاقة من جوف قلبك. كانت تلك لحظة شهية، وكأن لا وجع مرّ مطلقاً على جسد الكون، وكأن الحياة كانت على الدوام تضحك. شعرت بزخات مطر خفيف تهطل على العالم كله، وبوجه الحياة يكتسي بحمرة الخفر.

كان يوم ثلاثاء، قبل الغروب بقليل، من الأسبوع الأخير لشهر أغسطس، قبل عام مضى. كانت الحرارة تندلع من كل مكان، حتى من الحصى في الشوارع، غير أنني، في داخلي،

كنت أشعر بأن ثمة طقساً ربيعياً مشرقاً، ومسحة من الصفاء والحنان تغزو الكون والناس.

بعد أن أطلقتَ اعترافك الصريح، المفاجئ، بقيت واقفاً، مثل تلميذ ينتظر نتيجة الامتحان. كنت تنتظر أن أقول شيئاً، يبعث بالراحة إلى قلبك، الذي كان مثل عصفور يكاد يشقّ صدرك ويهرب، غير أنني لم أنطق بكلمة.

لوهلة ظننتُ أن ما أسمعه إنما هو حديث الريح للأشجار القريبة. ظلّ كل شيء في مكانه، ويداي مشغولتان بالحقيبة تتداولانها فيما بينهما، والنغمات الرقيقة للحشائش الخضراء، الرطبة، تستريح على أجنحة الفراشات الملونة، كانت إحدى تلك الفراشات قد حطّت بشقاوة على كتفي، وكنت على وشك أن أبعدها حينما فجأة شعرت وكأنما قد نبت لقدمي جناحان، كجناحي تلك الفراشة، وإنني أطير، وأطير.
سمعت رنيناً مثل موسيقى الندى في فجر ناعس، وصدى كلمات مذهولة، هي لروميو وجوليت ربما أو لقيس وليلى. . .

وحينما أدركت الأمر، كانت عيناي قد التصقتا بالأرض، ولفّني اضطراب مريع. ضاع صوتي فجأة، وغام كل شيء حولي.

ثوان قليلة كأنها الدهر كله، كأنها الحد الفاصل بين الحياة والموت، بين السعادة والشقاء، بين الوصول إلى برّ الأمان، وبين البقاء في ضياع وألم.

فررت من أمامك هاربة، تضج في عروقي دماء الخجل. كانت أول همسة تصل إلى ميناء روحي، أول مرّة أشعر فيها بأن لكلمة ما مثل هذا السحر، مثل هذا الجمال البري.

كل شيء أمرّ عليه يصدح بالغناء. رأيت للرصيف شفتين غامقتين تبتسمان، السيارات تزغرد، لم يعد لها ذلك الضجيج، يا لرهافتها! ياللشجن الذي ينبعث من أبواقها!

الجسر المكتظ بالعربات الحديدية المصطفة خلف بعضها في نفاد صبر، يلوح لي بعينين تلمعان أهازيج. كل شيء كان يبرق، والعالم يناديني بصوت صباحي أحبه: أنت محظوظة أيتها المعشوقة.

الأرض تكاد تنهب قدمي، وكنت أحمل في قلبي تلك الكلمة، مثل خاتم سليمان، تفعل الأعاجيب، فتحت لي بوابات كبيرة، عصية، لكهوف تغصّ بها أهوال التعاسة، كأنما هي في القاع منها تماماً، كأنما يا عنب الوقت، الشمس،

تضيء وجه الأرض، لأول مرة في تاريخ الكون. كأنما التاريخ قد طوى الزمن، ووقف عند حدودك، طائعاً، أميناً، مخلصاً لروايتك.

أ شعرتَ بقلبي يهزج بك، وأنا مولية الأدبار؟ أ كانت أنفاسي تطوقك، فيما أبتعد عنك بقسوة، لم أتنبه لها في ذلك الوقت؟

الآن، وبعد أن أدارت لي الأرض ظهرها، يبقيني غيابك منفصلة عن كل ما حولي. مكتفية بعزلة قسرية في البيت المطلي بالصمت والهدوء، خلف الحياة، في المسافة حيث تكون بعيداً عن الناس. كلما تدفق في شرايين البيت عنفوان الشباب، تجمّد فجأة، وتكلس.

لم يعد أحد ينتظر مني شيئاً، كأنما ركنت إلى التقاعد وأنا لم أباشر عملي بعد، كأنما انتهيت قبل أن أكون، كأنما هي الكهولة، تتشربني بنهم.

يمضي الوقت وأنا محاصرة في هذا العالم، الضيق، الذي لا يتوقف عن حشر صوته في الشقوق، كي لا يعثر عليه أحد. أبي ينادي. أدخل المطبخ لأعد له قهوته المعتادة.

* * * *

طرقت الباب، أحمل الصينية التي عليها دلة القهوة، والفنجان المقلوب، مع صحن التمر. غرفة والديّ صغيرة، جدرانها بيضاء تماماً، الستائر ثقيلة ومسدلة، والضوء يشع من مصباح طويل في الجدار. أبي يشاهد التلفزيون، كأنه صخرة مسنة، لا يبوح بشيء، لم يتحدث عن أمي مطلقاً منذ وفاتها وكأن الأمر لم يحدث، كأنها لم تزل معنا. إنه يحبها بحيث يتملكك اعتقاد بتوحده معها.

عندما أنظر إلى أثاث الغرفة القليل، وقد فارقته أمي، الدولاب الخشبي بأبوابه الأربعة التي تصرّ عند فتحها وإغلاقها، طاولة الزينة ملقى عليها مشط أسود بأسنان كبيرة وصغيرة، وبين أسنانه علقت شعيرات قصيرة حمراء، السرير الخشبي منتصب بجوار الحائط بمرتبته العالية وعليها لحاف عريض من القطن الأبيض، رائحة دهن العود، والمشجب الحديدي الذي تعلّق عليه الملابس خلف الباب، أشعر وكأن جذوع أشجار يابسة تسلقت الجدران بقوة، وخنقت فيها روح الحب.

مضى خمس سنوات على رحيلها وكأنها رحلت بالأمس فقط، كأن الأيام لم تتحرك، الذي نقص فقط هي جرعات السعادة، كأن الزمن توقف هنا، والشعور أيضاً.

في أحد الأيام، دعوت أبي للذهاب إلى أحد الأسواق التجارية المفتوحة حديثاً، جلسنا على طاولة صغيرة بثلاث كراس أمام محل كافيه. طلب أبي قهوة تركية، وأنا آيس كريم بالفانيليا. كنا طوال الوقت صامتين، وبين الحين والآخر ننظر إلى الكرسي الثالث الفارغ بيننا، شعرت بالتوتر، وكدت أبكي لأني تذكرت أمي، أما أبي فقد كان هادئاً لكن وجهه تقلّص، وكأنه على وشك أن يقول شيئاً، ولا يستطيع وسط هذا الزحام، وأمام كل هؤلاء الناس الذين يروحون ويجيئون أمامنا. نهضنا بسرعة، وخرجنا من المكان، دون أن نلتفت خلفنا، وكأننا لو فعلنا، فسنجد روح أمي تحتل الكرسي الفارغ!

وأنا واقفة بالصينية نظرت إلى الناحية التي جلست عندها خالتي بدرية، بثقل الـ٩٨ كيلو غرام، عند باب الدولاب، تجمع ثياب أمي، وبجانبها حقيبة جلدية كبيرة مفتوحة. خالتي سمينة ومكورة مثل كرة ضخمة، في نهاية عقدها السادس، حياتها الاجتماعية تنحصر في زيارات متباعدة لبعض أقاربها مبررة ذلك في أن مشاغل الحياة كثيرة، والناس لديهم دائماً ما ينشغلون به، وتردد: يا بخت من زار وخفف، لهذا لم تكن تغادر منزلها إلا قليلاً، جاءت إلينا ذلك اليوم، لأن أياً من أبي وأنا لم يكن قادراً على لمس ثياب أمي.

تجلس أغلب أوقاتها في غرفتها، تخيط فساتينها وجلابياتها من قطع القماش الذي تتلقاه هدية من نساء العائلة في المناسبات الخاصة. يجري القماش سريعاً تحت إبرة الماكينة القديمة التي أهدتها لها والدتها في ليلة زواجها، ومازالت مصرة على الاحتفاظ بها، وتتذكر زوجها المرحوم سعد أبو الخير، هكذا كانوا يطلقون عليه، لأنه كان كريماً مع كل الناس، مثل المطر يغدق على الجيوب وعلى القلوب، ولم يكن يتأخر قط عن مساعدة المحتاجين، هكذا علّمنا أبي كان يقول لها، الناس بالناس والكل بالله.

وتتذكر، كما في كل مرة، ما حصل لها في ليلة عرسها، عندما اجتمعت قريباتها حولها ليضعن لها الماكياج، مشاعرهن مضطربة، يختلط فيها الفرح بالحزن لأن لولوه تزوج عليها زوجها في تلك الليلة، ومن فرط ارتباكهن وضعن على وجه بدرية الكركم بدلاً من البودرة! لم ينتبه أحد للأمر، ودخلت على زوجها ووجهها مثل قرص الخبز، حين نظر إليها اندهش، ثم ابتسم، وقال لها: انهضي، واغسلي وجهك.

كان سعد رجلاً مرحاً، روحه طيبة، متوثبة نحو الخير، ويحب الإصغاء إليها وهي تروي له الحكايات الطريفة عن نساء العائلة، خصوصاً بعد أن تقاعد من عمله في البلدية.

قالت له مرة إن لولوه التي تزوج عليها زوجها، وجلب ضرتها لتسكن معها في نفس البيت كانت تضع صفيحة فارغة أمام باب غرفة ضرتها، فإذا عاد الزوج إلى البيت ليلاً، واتجه إلى غرفة زوجته الجديدة، يصطدم بالصفيحة في الظلمة، فتصدر قرقعة عالية، تعرف حينها أنه عندها.

وحكت له ما حصل لابنة خالة أبيها سارة، في ليلة زواجها جاءت الباصات وحملت الضيوف كلهم إلى بيت أهل العريس كما هي العادة في ذلك الوقت، وفي غمرة استعجالهم نسوا أن يأخذوا معهم العروس و«المدخلة» ـ المرأة التي كانت تعتني بالعروس ـ فاضطرتا إلى الذهاب سيراً على الأقدام!

كان يضحك وهو متكئ بظهره المستقيم على المسند الرمادي المنتفخ، ماداً رجليه الكبيرتين، واضعا ساقاً فوق أخرى، ويرتشف من كأس الشاي الثقيل.

تبكي خالتي بدرية، وتتقاطر دموعها على القماش، يأكلها الهمّ، وهي تنظر إلى ما آل إليه حالها، وكيف أصبحت وحيدة، مثل ثمرة جافة.

مات سعد بجلطة في الدماغ، كان يسقي الزرع في

الحديقة حينما فجأة سقط على الأرض، رأته خالتي من نافذة الصالة، هرعت إليه، وهزته وهي تنادي: سعد، سعد. لكن كان كل شيء قد انتهى.

لم يتوقف عن حبه لها طوال سنوات زواجهما الأربعين، حتى في الأوقات التي يتخاصمان فيها كانا يصبحان أكثر قربا من بعضهما، يعاملها كما لو أنهما، لم يزالا، في اليوم الأول من شهر عسلهما.

تأخرت في الإنجاب عشر سنوات كاملة، ضغط أهله عليه كي يتزوج ثانية، قالت له أمه: أريد أن أرى حفيدي قبل أن أموت، فردّ عليها إن أية امرأة أخرى لن تجلب له السعادة، وإنه لا يريد أن يشقى ويشقي بنت الناس معه.

كان رحيله فاجعة كبيرة لها، بالكاد استطاعت أن تمضي بحياتها، إذا اعتبرنا أن ملازمتها لغرفتها، والبرودة التي تسري في مفاصل أيامها حياةً تُعاش. لكنها ظلت تراه في أحلامها، وتتحدث إليه.

بقيت في منزلها الذي تركه لها في حي المروج، مع خادمة وسائق. أجرّت الدور الأول على زوجين حديثي

الزواج، ومن قيمة الإيجار كانت تنفق على البيت، وتوفر راتب الخادمة والسائق. ابنها حسن تزوج من موظفة في أحد البنوك، واستقر مع زوجته في شقة قريبة من مكان عملها.

في كل مرّة يزورها يطلب منها مالاً، ويتذمر من غلاء المعيشة، وارتفاع الأسعار. يقول لها بأن راتبه وراتب زوجته يذهب في نهاية كل سنة إلى المؤجر. وكانت في البداية تسأله: لماذا لا توفّر قيمة الإيجار، وتأتي أنت وزوجتك لتسكنا معي. لكنها توقفت عن السؤال عندما لم تكن تجد إجابة.

تنهض باستسلام، تفتح الخزنة السوداء الحديدية، الموضوعة في الزاوية، في نهاية الغرفة، تخرج من الخزنة عدة آلاف من الريالات وتضعها في كفه. يشكرها، ويغادر.

لم تعد تعني له أكثر من رصيد في البنك، يسحب منه كلما أراد ذلك، خلا قلبه من العاطفة ناحيتها، هكذا فكرت، حتى وهو يأتي لزيارتها، يأتي فارغ اليدين، لا يذكرها ولا حتى بكيس برتقال!

في نهاية كل أسبوع يأخذ الخادمة كي تنظف للمحروسة

زوجته الشقة، والسائق يقضي لها ولأهلها مشاويرهم في السوق تشتكي لأمي وتقول: يحدث هذا دون علمي في أغلب الأحيان، فقط لأني امرأة عجوز، لا أخرج من غرفتي، لا يعني، أني أجهل ما يدور في الخارج.

أ نستجدي الحب من أبنائنا؟ كان الفرحة الوحيدة التي انتظرناها طويلاً، صحيح أن سعد لم يكن يتحدث في موضوع الإنجاب، لكني كنت أعرف أن هذا الأمر يشغل باله، وأنه كان قلقاً ربما أكثر مني، لكنني رغم ذلك لم أستطع أن أمنع نفسي من الخوف، كنت أخشى أن يهرم حبه لي ويموت، وأسأل نفسي: هل سيرضى أن يكون بدون أولاد طول عمره؟

يصعب على الرجال أن لا يكون لهم امتداد من بعدهم، أبناء يحملون أسمهم. كنت خائفة من الهزيمة، كل شيء في الحياة يأتي عليه وقت ويتغير، ليس ثمة ضمانات. هو رجل ولن يضيره أن يتزوج بثانية، لكن أنا امرأة، لو طلقني تحطمت حياتي، من سيتزوج مطلقة وعاقر؟ رحمة من الله أنه كان يحبني، وصبر، حتى رزقنا الله بحسن، دللناه وكأنه الولد الوحيد في الكون، لم نكن نرى أحداً غيره، طلباته أوامر، يريد دراجة، يخرج أبوه في منتصف الليل يبحث عن محل دراجات فاتح كي يشتري له واحدة، وإذا مرض أسودت

الدنيا في عيوننا، أسهر أنا عليه طول الليل، وأبوه في غرفته يبكي.

يرفع صوته علينا، ونضحك، يضربنا بيديه وبقدميه الصغيرتين، ونشعر بالفخر. كبر ولم يحبنا كما أحببناه، صار أنانياً، يأخذ ولا يعطي، يظن أن من حقه أن نظل نخدمه حتى بعد أن تقدمنا في العمر. تزوج وصارت له عائلة وما زال ذلك الطفل المدلل. ماذا يفعل بنا حب الأبناء؟ قولي لي يا موضي؟ لماذا يضعفنا إلى هذه الدرجة؟

* * * *

هنا، على طرف المقعد الطويل الذي يجلس عليه أبي الآن وينظر إلى التلفزيون، وضعت خالتي عصاها ذات الرأس المدبب، وغرزت يديها السمينتين في الدولاب، أخرجت ملابس أمي. عيناها المختفيتان في شقين غائرين داخل وجهها الذي يشبه العجينة نفرت منهما الدموع. طوت الملابس النظيفة، وضعتها في الحقيبة المفتوحة ذات الأربع عجلات، وقالت بأنها ستهب هذه الملابس للفقراء.

سلّم أبي عليها، وخرج سريعاً من البيت، شقّ عليه أن

يرى ثياب زوجته تُسحب إلى خارج غرفتها، الثياب التي طالما رآها بها وهي تتنقل في البيت كالنحلة، وتتسلل يداه إليها، وهي تعمل في المطبخ، أو وهي تمسح الأثاث وترتب الغرف.

بقيت معها، أتابعها وهي مشغولة بالبكاء، وبتفحص الصالح من الثياب. تتمتم بعبارات الدعاء، وتطلب لأمي الرحمة، تمسح دموعها بطرحتها السوداء الثقيلة وتنظر إلي.

قالت لي: أمك يا شهد ملاك. القلب الكبير، الذي يسع الدنيا كلها. كانت الخير كله يا شهد. تذكري ذلك.

انتبهتْ إلى أنني كنت أحدق فيها بعينين زائغتين، كأنني لا أرى شيئاً على الإطلاق. لقد رحلت أمي، تركتني وحيدة ورحلت، هان عليها أن تدعني بلا أحد، ماذا سأفعل من بعدها، كيف سأعيش؟

ارتعبت خالتي لمّا رأت صمتي. تقدمت مني وهزت كتفي: قولي شيئاً يا بنت. لا تكتمي في قلبك. ستنفجرين. أنت هالكة إذا حبست كلماتك في صدرك. لكنني بقيت صامتة، كما لو كنت أصعد وحدي درجاً عالياً في الضباب،

وصوت خالتي المكتنز بالبكاء يبتعد، ويبتعد، وأنا وحدي، والضباب يفور حولي.

* * * *

نظر إليّ أبي وقال: هاتي القهوة. خطوت خطواتي الأربع التي أعرفها جيداً إلى الداخل، وضعت الصينية أمامه، وهممت بالانصراف. هذا ما أفعله كل يوم، لم يكن يدور حوار بيننا، عمّاذا يمكن أن نتحدث؟ كان ينظر إلى التلفزيون، وقد بدأت نشرة الأخبار، المشاهد المعتادة، جثث، دماء، انفجارات، وأعضاء مقطعة، تمتم في حزن قائلاً: ما الذي حلّ بالعالم، الناس تُقتل كالدجاج، لا حول ولا قوة إلا بالله، لم يعد في الدنيا أمان.
أدرت ظهري خارجة فقال لي: «صبي لي فنجان قهوة»

اعتادت أمي أن تعد له القهوة ثلاث مرات في اليوم، وأفضل الأوقات كان في الصباح بعد عودته من صلاة الفجر، والكون متدثر بالهدوء، عندها تكون الأحاديث جميلة، وصوتاهما هامسان مثل حفيف ورق أشجار عالية تلامس بلطف نسمات ريح خجولة.

كان قلباهما يتحدثان، بلغة لا يعرفانها إلا في هذا الوقت من النهار، ويلمسان فصل الربيع في غير موسمه، يشمان رائحة زهور يانعة من بستان يبزغ في سواليفهما الندية، حتى كان ذلك الصباح الذي عاد فيه من صلاة الفجر، وسعل عدة سعلات جافة، وانتظر قهوته مع إناء التمر كما في كل مرة، لكنها لم تستيقظ.

ما زلت أتساءل باستغراب كيف نجحت وهي التي لم تفتح كتاباً واحداً في أن تظل تنعم بحب رجلها إلى آخر لحظة في عمرها، وما أن غيبها الموت حتى أصبح رجلاً يخطئ في معرفة نفسه، يرتبك في حياته، ويربكني معه.

لو أنها بيننا الآن لرميت برأسي على كتفها النحيل، ولبكيت طويلاً، ولكنت سألتها وأنا أنتفض حزناً، لماذا ضيعتك يا نايف فيما هي نجحت في الاحتفاظ بأبي عمرها كله؟ ما الذي فاتني حتى تركتك تتسرب مني مثل جدول ماء ابتلعته الرمال؟ وعرفت أنني طوال ما تبقى لي من حياة سأظل أسأل نفسي تلك الأسئلة الحمقاء.

قال لي أبي بعد أن خفض صوت التلفزيون، فكان المذيع المهندم يحرّك شفتيه بدون صوت وقد بدا غاضباً وهو يقرأ

علينا سلة الأخبار الحزينة:

ـ منصور كلّمني في زواجكما مرة أخرى، ملّ الرجل، يريد أن ينتهي من هذا الأمر.

قلت بصوت خافت، مرتعش:

ـ ما زال الوقت باكراً. لماذا هو مستعجل هكذا؟

أجاب:

ـ كل ما عجّلنا بإتمام الزواج كان ذلك أفضل.

لم أدر ما أقول، كيف أشرح له؟ احتدمت في رأسي الأفكار، كم أفتقدك يا أمي! أشعر وكأنني مطوقة بحبل في عنقي، وبأنني بالكاد أتنفس.

رفعت رأسي إليه في رجاء، لكنه قال لي: سأمهلك حتى نهاية هذا الأسبوع لتقرري. وعاد يرفع صوت التلفزيون، انسحبت بهدوء خارجة من الغرفة.

* * * *

في غرفتي أتخفى، يستهويني الليل بشكل خاص كأنما يعانقني من القلب الذي يصير قصياً، ومعلَّقاً على صرير الباب، الليل الجاهز لمناورة محبي السهر، المفتونين ببرامج

التلفزيون، أو بشاشة الكمبيوتر، أو بسماعة الهاتف، أو أولئك الذين يدفنون رؤوسهم طوال الليل في الأوراق ويكتبون.

في شاشة هاتفي ست مكالمات لم يرد عليها، كلها كانت من «منصور»، دقيقة واحدة تفصل كل مكالمة عن الأخرى. لماذا يلحّ على مكالمتي؟ سيتحدث عن المال والتجارة والاستثمار في البنوك، وأنا أغرق في صمتي، وأشعر بكلماته مثل طنين الذباب في رأسي، وحين ينهي محادثته، وأغلق السماعة، أشعر بالخواء، وأبدأ في البكاء، هكذا فجأة تنهمر الدموع من عيني، أغطي وجهي بيدي، ولا أتوقف، وأظل ألوم نفسي لماذا لم أعرف مطلقاً كيف أعبّر عن مشاعري؟

لم يعد لديَّ أدنى مجال للشك في أني غبية جداً، وجاهلة، لأنني أتصرف كما لو كنت تابعة له. هل أنا دمية يحركها بأصابعه؟ وكم هم عدد الأشخاص الذين يتشاركون في إدارة شؤون حياتي؟ يتحكمون بي بحسب الأفكار التي يعتقدون بها؟ وكنت أزداد بكاء كلما تعمقت تلك الأسئلة في رأسي.

كان يقيني أن حصاراً لا أفهمه يضرب أطنابه حولي. ويبقيني بعيدة عن نفسي، وعن كل ما يحيط بي.

استلقيت على سريري، لا شيء في الخارج يعني لي شيئاً، الباب نصف موارب، يتسلل إلى عيني ضوء الرواق.

لم أحب النوم في الظلمة، منذ أن كنت صغيرة، كنت أتشبث بثوب أمي، وأتوسل إليها ألا تغادر الغرفة قبل أن أغمض جفني، وأختفي في طيات النوم. يرعبني أن أستيقظ في منتصف الليل، وأجد نفسي غارقة في السواد.

ما الذي يقيدني إلى القلق فأتكلس فيه بمثل هذه الهشاشة؟ ما الذي أحاول أن أنأى عنه هاربة بروحي التي تخطر بقدمين هزيلتين على مراثي الحزن، مثل متشردة حمقاء غير مدركة لثورة البياض، ولم تصادق الشمس النهارية؟

ما الذي أبحث عنه بمثل هذا الجنون، وبكرامة ميتة، مجدفة بمياه الحسرة؟

وضعت كفي تحت خدي، تماماً كما كنت أفعل وأنا طفلة، وأمي تقصّ عليّ حكاية ما قبل النوم، الأميرة النائمة، سندريلا، الأميرة والأقزام السبعة، وينساب صوتها وديعاً، فيكسر كل قيود الخوف في أعماقي، أخرج إلى عراء الحلم مُحرّرة، وبإصبعي ألمس النجوم البراقة.

كنت قريبة من مهرة الصباح، شقية، ومولعة باللعب في

جنبات البيت، لا أدرك ماهية القلق. ذراعا أمي غصنا نور، هبّات سلام رقيقة، منعشة.

لحظة السعادة التي كانت أمي تحملها مع صينية الإفطار إلى سريري وأنا طفلة، ظننتها ستكون لحظة أبدية، لكنها انقلبت على ظهرها مثل سلحفاة هرمة.

* * * *

في حرب الخليج الثانية، كان خوفي طاغياً، الحرب في بيتنا، على مقربة منا، الموت يواجهنا، بشراسة، كنت مفزوعة ومرعوبة. لم أفكر بشيء سوى بالموت، وكأنه طائر أسود يحوم حولي. سمعت أن الإنسان وهو يموت لا يشعر بشيء، ومع هذا لم يقل رعبي.

قالت لي أمي إن أهم شيء هو الثبات. الخوف يا ابنتي يعمي العقل ويجلب الأوهام، المسألة كلها هنا، وأشارت إلى قلبها. كنت وقتها في أول متوسط، المدارس أغلقت بسبب الحرب، لم يكن ثمة مكان نفرّ إليه. الصواريخ ستسقط فوق رؤوسنا، وسنموت. هذا ما كنت أفكر فيه، الكثير من الذين نعرفهم غادروا الرياض، وضعوا أمتعتهم في السيارات، وهربوا إلى أقاربهم، تمنيت لو كان لنا أقرباء في مكة أو في أية مدينة

في المنطقة الغربية، بعيدة عن مرمى الصواريخ، كنا نحن أهل الرياض والمنطقة الشرقية الأكثر تعرضاً للهجوم.

أحاط أبي النوافذ بالأشرطة اللاصقة ليمنع الغازات الكيماوية من التسلل إلى الداخل. واشترينا أقنعة واقية. حصلت تجارة الأشرطة اللاصقة والأقنعة الواقية على رواج كبير في ذلك الوقت، وانتشرت شائعة أن بعض تلك الأقنعة مغشوشة، فيها ثقوب صغيرة يدخل منها الغاز الكيماوي!

تابعنا باهتمام التعليمات الأمنية في التلفزيون. كان كل ذلك جديد علينا، لم نعرف من قبل كيف يكون الرعب من الحرب، كنا نشاهد ونقرأ عن الحروب في وسائل الإعلام، وندرسها كتاريخ في الكتب، لم نكن نعلم أنه سيأتي يوم وتكون الحرب واقعاً نعيشه.

هل سنبقى أحياء إلى الغد؟ كان هذا السؤال يطرق رؤوسنا بلا إجابة. هل سيسقط الصاروخ أو جزء منه فوق بيتنا؟ هل سنكون في الصباح جثثاً مطمورة تحت الأنقاض؟ وكيف هو الموت تحت جدران من الأسمنت المسلح؟ هل سأموت دون أن أشعر بشيء؟ أم أنني سأظل مفتوحة العينين، تحت الجدران المتهدمة، أرقب انقطاع الهواء عني؟

رجل الأمن، ذو العينين الجاحظتين، والذراعين الطويلتين كان يشرح لنا إرشادات الأمان، ويعلّمنا كيف نقوم بلصق «الشطرطون» على النوافذ، ويرشدنا إلى الأماكن التي نختبئ فيها عند إطلاق صفارة الإنذار، وجهه مخيف، يقترب كثيراً من الشاشة وكأنه سيقفز منها.

كانت الصواريخ تهجم علينا في الليل فقط، أما في النهار فلا تقدر على اختراق الأجواء، حرارة الشمس القوية تقضي عليها. كان الناس يباشرون أعمالهم في النهار، وإذا جاء المساء لزموا بيوتهم يترقبون.

صفارات الإنذار كانت مثل جلجلة أفعى في صدري، حين أسمعها أهرع إلى المخزن الصغير تحت الدرج، اختبئ فيه حتى يزول الخطر. لم تكن لدينا ملاجئ. كنت أوقظ أمي فتهدئني، وتطلب مني أن أنسى أمر الصاروخ وأنام! لكنني لم أكن لأنام حتى أسمع إطلاق صفارة زوال الخطر.

* * * *

جاء الموت وأخذها، كان ذلك في أحد صباحات ديسمبر. نهضت من نومي، لا أفكر بشيء، وأتلصص على

العصفور يغرد عند شرفة غرفتي. أتوسد ذراعي، وأصغي إليه. لم أكن أعلم أن أمي في ذلك الوقت مسجاة في فراشها بلا روح. فيما كنت أحصّن عصفوري من المغادرة، كانت روح أمي ترحل.

متهالكاً سقط أبي على المقعد. رأيت الحزن إخطبوطاً التصق بوجهه، وشل قسماته الغليظة. بدا ضعيفاً، ومنهكاً، وكأن عدداً لا حصر له من الصفعات والركلات قد انهالت عليه، فأفقدته وعيه بنفسه وبالواقع.

قال كلمتين، فجرتا المكان، تحول بعدها بيتنا إلى خراب، كنت وقتها في آخر سنة لي في الثانوية. ما الذي حدث؟ كيف ماتت أمي؟ لا أحد يدري.

نظرت إلى أمي، ممددة على سريرها، وجهها الأبيض المورد، فرّ منه اللون، عيناها مغمضتان في سلام، شعرها الأحمر المحنّى مطروح على الوسادة، كأنها مشطته منذ دقائق. في البداية لم أستوعب الأمر، لم أفكر بشيء، عقلي كان مجرد حجرة فارغة، وكأن شيئاً من هذا لم يكن جدياً. كان عليّ أن أدرك أنني سأعيش بقية حياتي محرومة منه.

اختفى من عيني بريق التلألؤ . كلماتي صارت تمشي بلا أعناق . أبقى صاحية ، طوال الليل ، حتى يغلبني النوم ، وفي الصباح أستيقظ فزعة ، تنهشني الكوابيس . تمنيت لو أنام ليلة واحدة بلا أحلام مزعجة ، أنام بسلام كما في الماضي .

أبي انخرط في عزلته . هواجسه تنخر فيه ، حتى لم تبق مكاناً إلا وثقبته . روحه تعبت . لغته مختصرة ، وكأن تدفق الحياة فيها قد انقطع فجأة !

كنت أتسرب ببطء ، ببطء ، مثل ماء في مجلى . يخالطني رغبة الحلم بصوت أوراق تنزف ، كتبت فيها تهاويم غرائبية .

تبدت لي أكثر من واحدة في أعماقي ، فمرة أنا أميرة غير أرضية ، تتطلع إلى لقاء أميرها الذي يبزغ مثل قمر مكتمل من ورقة نبات على غصن شجرة قد تكون في أي مكان ، ومرة عجوز تجلس قبالة جدار حاد البياض لوقت طويل ، تفتقد مشاعر العنف أو الرضا ، غير أن ينابيع البهجة وشغب الأفراح تتضاءل بين يديها .

وقد أرى نفسي مقصّاً لا هو بالصغير ولا بالكبير ، لكنه مقصّ حاد ، ما أن يقبض على قماش حياتي حتى يتركه لغير ما

أحد ، ومرة أنا ذاكرة مقفلة ، مقفلة تماماً ، تسطع عليها الشمس وترتد ثانية ، يتدفق من قعرها ضباب كثيف .

وجد حيوان الحزن اللطيف مكاناً له في غرفة قصية من قلبي ، كان صغيراً بادئ الأمر ، زعقاته ناعمة ، وخفيفة ، ثم كبر هذا الحيوان ، وصار يخمش غشاء قلبي بقسوة . لم أك أبكي وهو يعضّني بوحشية ، كنت فقط أضيق حول نفسي ، وأنكمش .

حتى عرفتك . أي سعادة بُعثت بي؟ كيف صرت أحب الحياة؟ لم يعد ثمة أحلام فارغة . أفكاري الضعيفة ، الهامشية ، قويت فجأة . كأن أياماً جديدة ، مدهشة ، قدمت إليّ ، كأن أساي ، في لحظة ما ، لحظة غير منتظرة ، طعن نفسه ، ومات .

* * * *

صباح الخميس تنشر العصافير زقزقتها بين أغصان الأشجار ، وحول البيوت ، تحلّق في فضاء ليس له أول ولا آخر ، الحدود تغادرها ، صغيرة ، وتدعك الأفق بأجنحتها .

أنظر من خلال النافذة المفتوحة إلى السماء ، أرفع الغطاء

حتى يصل إلى رقبتي، هواء المكيف شديد البرودة، بضعة غيوم تطوف عبر المساحة التي تسمح بها فتحة النافذة.
الساعة العاشرة صباحا. رأسي فارغ، هكذا أحب أن يكون، السماء تضاحكني، تقبّل أحلامي البيضاء، تطبطب عليها كأم.

أترك فراشي واتجه إلى النافذة، أطلّ منها على الشارع، ثمة طائر وثلاثة من صغاره، يقفزون على الإسفلت الأسود المظلل بالشجيرات، مناقيرها الدقيقة تنقر شيئاً ما، شيئاً لا يبين، تتحرك الطيور بخفة وبسرعة حذرة.
هذه الطيور مشغولة بحياتها، فنها الذي تتحد به، تختصره في ما يمكن أن تلتقطه بمناقيرها أو تلمسه بأجنحتها، طيور النور لا الظلام.

كيف تعيش تلك الكائنات المختلفة عنا؟ الكائنات غير الناطقة، التي حياتها تدور في فلك آخر، لا يعنيها ما يعني الناس، ولا يشغلها ما هو عدل أو ظلم. حياة بسيطة، وغنية، ومفعمة بالروح، وبالحركة الدءوبة لشغل الحياة. همّها حاضرها. لا تُبقي ذكرى ما مغروسة في عقلها، ما هي الذاكرة بالنسبة إليها؟

الصباح ينهمر دفعة واحدة. ضجيج السيارات يخترق

جدران الغرفة. عجلاتها تدوس الطرقات بقسوة، تلك القسوة التي لا تتعلم مطلقاً ولا ترأف.

الرياض شجر يابس عند البيوت، سماؤنا لا تتقلد الغيوم إلا في مرات قليلة. نحن صحراويون. كانت الرياض فيما مضى روضة من الخضرة والماء، لا أكاد أصدق، أين ذهب كل هذا؟

التناقض بين عاملي التصحر والمطر الذي يأتي شحيحاً كما لو كان يزور المدينة بخجل، يقرع الباب بوفوده القليلة، وما أن يفرح به الناس، وتتهلل له الوجوه حتى يمضي مسرعاً، مطر لا يحتمل البقاء هنا مدة أطول، يفضل أن يكون مُشتاقاً إليه على أن يكون أحد ساكني المدينة.

* * * *

يتردد حديثنا في أذني مثل نادل يرتّب بصورة سريعة مناديل الطاولة، قلتَ لي:
ـ لنتزوج ونرحل من هنا.
ـ نرحل إلى أين؟
ـ إلى أمريكا.

ـ ولماذا؟ صرختُ برعب من يراد انتزاعه من مكان يتشبث به بقوة .

كان يوماً حاراً، والمقهى فيه همسات خافتة من خلف الجدران الخشبية المربعة . قلتَ لي : لأبحث عن فرصتي في الحياة .

ـ وما بالها الفرص هنا؟

زرعتُ قلقاً جديداً، أنا التي لا أتواجد في أي مكان بدونه .

ـ هنا أنا مقيد، طموحي معلول، لا أعثر على نفسي . هنا أنا مثل الجميع، وأشبههم .

صمتَ لثوان بدت كأنها الدهر، كنتُ سأبكي، حتما . صوت طرق خفيف على باب الغرفة، وضعتُ الغطاء سريعاً على وجهي، وأنا أشعر بنار تشتعل فيه، كأنما عيناي تحترقان، وأنفي يتجمر وشفتاي تتحولان إلى رماد .

سألتني وكنت هادئاً : ماذا تطلبين؟

ـ مكرونة اسباغيتي . وضحكت على نفسي، يا للمفارقة! لكِ الرغبة في الأكل! أنتَ طلبت كوب شاي فقط!

عيناك تحلّقان في أفق متخيل بعيد . عيناك التي أحببتُ جناحا نسر قوي يصارع الريح والعواصف وموجات الغبار الشرسة .

قلت لي : يا شهد أنت لا تعلمين . ورفعت رأسك إلى السقف، ولمّا لم تجد شيئاً مهمّاً هناك أنزلته إلى البلاطات المبقعة بالزيت وببقايا الطعام في فسحة الغرفة الضيقة .

ـ بل أعرف، أعرف أني ـ أردت أن أقول : أحبك، لكن الكلمة لم تخرج من فمي ـ متعلقة بك، وحلمت كثيرا باليوم الذي نكون فيه تحت سقف واحد، لكن السفر! أنت فاجأتني .

وضعت مرفقيك على الطاولة وصرت قريباً مني، كأنما كنت سأتلاشى!

ـ حاولت أن أتكيف مع الناس هنا يا شهد ولم أنجح، منذ أن كنت طالباً، لم يفهمني أحد، لا في المدرسة ولا في البيت، أنا ما أمشي بالأوامر، والحياة العادية لا تعجبني .

عاد الطرق المهذب الخفيف على الباب، غطيت وجهي، وضع النادل صحن المكرونة على الطاولة، وكوب الشاي مع أكياس السكر البيضاء والبنية ثم انصرف . رفعت الغطاء فبدا وجهي شديد الحمرة، ضحكتَ، وقلتَ : أنت أحلى .

ضاعت نظراتي الخجولة في طبق المكرونة، لم أتعمد أن أصمت، لكن كلمتك هذه زلزلتني . كنت أود أن أقول لك الكثير، وددت لو اعترضت . سألتك : وأنا؟ ألم تفكر بي؟

قلت : أنت في عيني وقلبي ، لن أتخلى عنك ، سأكون حصنك وقوتك وأمانك .

ـ هناك؟ في أمريكا؟

ثم سألتك : هل وجدت عملاً هناك؟

قلت : سأبحث عندما نستقر . ثقي بي .

ـ في حال وجدت عملاً كم من الوقت ستقضيه في العمل؟ وكم سيتبقى لي؟

ـ عليك أن تعتادي غيابي .

ـ سنكون عندئذ في ديار الغربة ، وسأكون هناك أكثر وحدة مني هنا .

كان حوارنا يأخذ طريقا مسدوداً ، أظلمت الدنيا في عيني ، وشعرت أن كل أحلامي تنهار دفعة واحدة . طلبت منك أن تعيد النظر في قرارك ، حاولت أن أشكك في ما تنوي أن تقوم به ، كنت يائسة ، لكنك تحدثت بلا توقف عن كل شيء ، تذكرت كل ما جرى لك من أيام المدرسة في الثانوية ، قلت إنها كانت أياماً صعبة ، المدرسون كانوا في صدام مستمر معك ، تقول إنك في إحدى المرات فُصلت من المدرسة ثلاثة أيام لأنك اشتبكت مع المعلم عندما قال لك يا حمار!

قلت لي إن والدك الموظف البسيط في شركة الكهرباء

توسّط لك ليعيدك إلى المدرسة ثانية . انحني على مكتب المدير وبرزت تكويرة ظهره ، ذراعاه الضعيفتان ارتجفتا وهو يضع ثقله كلّه عليهما ، نفَسه صعد وهبط ببطء كأنما استله استلالاً من جوفه ، وبكلمات هزيلة ، تشبه الإذعان أعادك ثانية إلى المدرسة ، وكأنما كان يقيّدك ، ويتركك في مكان ليس لك . هكذا وصفت ما فعله أبوك بك ، ولم أقاطعك بتاتاً ، فمن ناحية كنت مشغولة بعيدان المكرونة التي لم أكن أعرف كيف آكلها من غير أن أحرج نفسي أمامك ، وتمنيت لو أني طلبت بدلاً منها بطاطس مقلية ، فهذه يمكن للشخص أن يأكلها بأمان .

قلتَ : كنت أراقب والدي يتوسل للمدير أن يعفو عني ، وأشعر وكأن أحداً يطعني بسكين في ظهري ، يقول له ابني من اليوم وصاعداً سيتعقل ، ويترك عنه الجنون والطيش ، سيكون طالباً مثالياً يسمع الكلام أكثر من أي طالب آخر . وينهى حديثه مع المدير قائلاً له : لكم اللحم ولنا العظم .

لكم اللحم ولنا العظم أخذت تردد هذه الجملة بتمهل كأنما هي درس تريد أن تستوعبه ، ماذا يعني ذلك؟ تسألني ، هل هي مدرسة أم محل قصّاب؟ هل نحن طلاب علم أم ذبائح معلّقة للبيع؟

وحزنتَ وحزنتُ معك ولم أعرف ماذا عليّ أن أفعل؟ غير أني شربت الماء الذي أمامي. كانت الأجواء قد امتقعت، والهواء الطيّب التحف زاوية وخمد، وقلبي البطيء الفهم بكى بين ضلوعي لمّا لم تعطه شيئاً من الحنان، ولمّا لم تغنِ له، وتركتَ إعصار أوجاعك يقشعه من فرحه.

كيف لي أن أفهم كل ذلك؟ أنا البنت المسكينة التي تحب بدون أن تفهم شيئا عن الحياة، لقد وجدتك وهذا يكفي كي أرحل كل ثانية إلى الغيوم المنبطحة في السماء وأعود وبيدي وردة حلم.

ثم تابعت تحكي لي إن والدك عاد إلى البيت حزيناً مهموماً، حائراً في أمرك، ويسأل نفسه، ما الذي يجري معك؟ وكيف يعاملك؟ لست صغيراً كي ينهال عليك بالضرب، لقد كبرت وصرت رجلاً، يُفترض أن يعتمد عليك. إنه يريدك أن تتعلم، وأن تتخرج من الجامعة مثل أبناء عمومتك.

يجلس على المقعد المواجه لباب غرفتك، يرشف الشاي الأسود وعيناه مصوبتان على الباب، كأنما يريد منهما أن تتحولا إلى شعلة لهب، تخترق الباب، وتعرّي قلبك، كان

يريد أن يطلّع على ما فيه، يقرأه صفحة صفحة، يريد أن يعرف كيف تفكر؟ لأنه كان يجهل الطريقة التي يعمل بها عقلك.

يا بني لا تفعل بنا ذلك، أنت تدمّر نفسك وتدمّرنا معك. تقول له: كيف يا أبي؟ يقول لك: هل أنت غير عن خلق الله، أنت من طينة ونحن من طينة أخرى؟ تقول له ويكاد صدرك ينشق بالبكاء: لا يا أبي، أنا ابنك، تربيتك، ولن أخرج عن طوعك.

يقول لك: إذن لا تعارض ما تراه أمامك، كل الناس ماشية على هذه الحال، لن تأتي أنت وتغيّر الكون. تقول له: لم أفعل شيئاً، ناقشت المعلمين في الدروس التي يلقونها علينا، هل ارتكبت جرماً؟ يقول لك: لا، لم ترتكب جرماً، لكنه عمل غبي يا بني، ما فُتحت المدارس لهذا، هم دورهم أن يعطوك الدروس، ودورك أنت أن تختبر فيها في نهاية الفصل الدراسي، هذه هي الخطة ويجب أن تمشي عليها. تقول وأنت تتهكم: وإن خالفتها؟

يقول والدك بحزم: إن خالفتها أبعدوك عنهم، وهذا يا بني، ليس في المدرسة فقط، ولكن مع الناس أيضا، إذا لم تصبح مثلهم عزلوك عنهم، حتى ترى نفسك وحيداً. تقول له: بأي منطق؟ يقول والدك: بمنطقهم يا بني.

أمك تقف قريباً بجلابيتها ذات اللون الكامد، وبتعبير الخرس في ملامحها الصفراء، تتابع كلامكما، وتعضّ على شفتيها ألماً، وتسأل نفسها، ماذا حلّ بابني؟ يا رب سترك.

لم يكونا يفهمان شيئاً، وكانا خائفين عليك. تقول لي إن أباك اشتكاك لبعض رفاقه، قال لهم: أتعبني هذا الولد، لا أعرف كيف أتصرف معه؟ فيقولون له: لا تهتم يا أبا نايف، إنه عناد المراهقين، غداً يكبر ويعقل، سوف يمرّ كل ذلك بسلام.

وكأنما العالم كلّه وقف ضدك، كأنما الكون الذي رغبت في ترميمه صدّ عنك، شعرت بنفسك مقهوراً ومنبوذاً مثل مجذوم، في المدرسة ينظرون إليك كغريب، المعلمون يتجنبونك، وطلاب فصلك يتعاملون معك بحذر، وعرفت أنك لن تنجح في الدراسة إذا استمر الوضع هكذا، كأنك شوكة في حلوقهم، فقررت أن تصمت.

هل كان ذلك ذكاء منك؟ استسلام؟ هزيمة؟ هل انتصروا عليك؟ أ أعلنت عن تخاذلك؟ وأدت كل تلك الأسئلة، وأخرى تتوالد في باطن عقلك، والتزمت الصمت.

تقول لي: كصخرة صماء يا شهد كنت أجلس خلف طاولة الدرس، أنقل ما هو مكتوب على السبورة في دفاتري، وإذا وجدت خط المدرّس غير واضح أنقله كما هو، بدون أن أفتح فمي بكلمة، وفي وقت الامتحان أحفظ ما في الكتب وأجيب على الأسئلة. مثل الببغاء أكرر ما أسمعه، تخرجت كما يريدون، كي لا يحاربني أحد.

شعرتُ بقلبك الطفل يرتجف مثل ورقة خفيفة في عاصفة رملية. العالم كلّه في تلك اللحظة كأنما يختبئ خلف جملنا الغامقة ويصغي، وماذا كنت أفعل حينها سوى أن أنشده بك، وبحزنك الدفين؟

حين التحقت بالوظيفة لم أكن أتوقع أي جديد، كان الروتين فقط حاضراً بقوة، اليوم مثل الأمس مثل الغد، لا شيء جديد.

عائلة سعيدة تخرج من الغرفة المقابلة لنا، أرى أشباحهم خلف زجاج الباب الغليظ، وأسمع جلبة أصواتهم المتداخلة ببعضها فلا أفهم حواراً واحداً مما يقولون، لكنهم انتهوا من عشائهم، وفي سبيلهم للخروج من المكان. عائلة متكاملة زوج وزوجته وأبنائهم وبناتهم، متى تكون لي عائلتي الخاصة؟ ركض السؤال سريعا في رأسي، زوجي وأبنائي وبناتي، ثلاثة

أولاد وثلاث بنات بالعدد، لا يزيدون ولا ينقصون، هل تشاركني يا نايف أحلامي؟ أم هي أحلام ساذجة لا ترقى إلى مستوى تفكيرك المتفرد؟ وشعرتُ بالحنق عليك، وبالغضب، وقبل أن أصارحك بما يشغلني قلت لي: إنهم يحاولون القضاء عليّ يا شهد لأنني أعمل أفضل منهم، وآتي بأفكار جديدة، ومقترحات لتطوير آلية العمل والإنتاج. يخشون أن أسحب الكراسي من تحتهم، فصاروا يحاولون أن يسحبوني إلى دائرتهم، أن أكون مثلهم، لا همّ لي سوى أن أقف في الطابور نهاية كل شهر لأستلم راتبي، هذا لن يحدث أبداً. لن أسمح لأحد أن يقتل حلمي.

وعادت أحلامي إلى جحرها مريضة ومستاءة، ولم أفهم ماذا يعني ما تقوله، فكل الناس يعيشون هكذا، وهم راضون بعيشتهم. يقضون النهار خلف المكاتب، ويعودون إلى بيوتهم ظهراً. يأكلون حتى التخمة وينامون، ثم يخرجون إلى الاستراحات، وبعدها يعودون ثانية إلى بيوتهم وينامون حتى الصباح، ثم يذهبون إلى أعمالهم، وهكذا، طاحونة تدور وتدور، ولم يحاول أحد أن يتمرد عليها.

الحياة راكدة وجامدة، ولا أحد يهتم. لماذا أنت من بينهم تريد أن تهرب؟

لماذا لم تحاول أن تكون مثلهم؟ مثلي أنا؟ لا أعرف مكاناً غير هذا المكان، لم أغادر بلدي ولا حتى لسفرة قصيرة. لا أدرك كيف هي الحياة إلا هنا. إنني مثل شجر هذه الصحراء وطيورها. سماؤها قريبة، أفقها صديق، روحي فيها

* * * *

بعد أحداث ١١ سبتمبر عاد الأمل من جديد يطرق باب قلبي، عاد الحلم طفلاً في مهده. ظننته سيعود مع العائدين، ظننت بأن الغربة ستخونه كما خانني وهو يتخلى عني بأنانية. كنت أردد في نفسي أنه لا يستحقني، وأنه لم يحبني قط.

حاولت مراراً أن أنسى. أردت أن أكرهه، عندما لم أنجح في نسيانه، لكن القلب مثل الذاكرة لم يتصالحا يوماً معي. ظللت أحمله في داخلي في حرز مكين، لا تطاله شمس الغياب، ولا تمسه رمضاء الأوقات الحارقة.

كان خوفي من حياة جديدة لا أعرفها، وعالم لم أطّلع عليه يسيطر علي ويشلّ تفكيري. أرقت آخر قطرة أمل كان ينتظرها عندما قلت له قراري الأخير. في لحظة، رأيت نفسي مثل فأر، أطبقت عليه المصيدة، ولم يبذل أدنى جهد لينجو بحياته، كان فقط يجلس هناك وينتظر.

لم أفكر كم يطول انتظاري. لم يكن في حياتي شيء مهم أفعله. كانت الأيام نفسها تأتي لزيارتي، وتطمئن على أنني ما زلت على قيد الحياة.

الضجر يحترق في الأثاث وفي الكلمات التي لا تعني شيئاً. كأن أخرى غيري، بجنون وببلاهة غريبة تدوس على الأزهار التي أمضت أجمل أيام عمرها تعتني بها.

ولم يعد نايف، كأنما الحياة ضحكت عليّ حينها حتى كادت أن تنقطع أنفاسها، كأنما لم يكن ثمة شيء يستحق أن يعود إليه، لا شيء على الإطلاق. من أنا إذن؟ وكيف كنت في قلبه؟

كانت الطائرة ملاذه في ذلك الوقت ورحم شتاته، الدار المعلّقة بين وهج المستقبل وحياة الماضي. لم أسأل أخته حنان إذا ما كان قد تزوج، كنت خائفة من جحيم السؤال، لكنها كانت تأتي أحياناً على ذكر فتاة استرالية تعمل معه في نفس الشركة، وأدركت حينها أن حبي قد مات في قلبه.

ليأتِ منصور إذن. منصور القشور التي تغطي الإحساس وتدمره. ليأتِ كي يطيّر الدهشة، ويركلها باللامبالاة. يتكلم كثيراً، وفي كل كلماته يلفظ الحب أنفاسه!

كيف أحب من لا يتسلل قلبه إلى قلبي؟ كيف أحب من هو في عالم، وأنا في عالم آخر، لا صلة تربط بين العالمين، كل منا يتكلم بلغة مختلفة عن الآخر. كيف يتحدث من كان كل وقته يقضيه في البيع والشراء؟

تاجر عقار، لم يكمّل دراسته. الشهادة الجامعية لا تؤكل خبزاً، وليس هناك أفضل من الأعمال الحرّة، تدرّ المال الوفير. وضع قلبه في رزمة من الأوراق المالية، وأودعه أحد البنوك.

قلبه يتحدث بلغة المال والتجارة، وأنا قلبي قلب وردة، يهز أوراقها الرقيقة مطر الحب ولو كان قليلاً. لا شيء يجمع بيننا، سوى أن أبي صديق أبيه من عهد الطفولة، فاختاره كي يكون زوجاً لي.

تمت الخطبة، وأنا في الثالثة من عمري، وهو في الخامسة. كنا نلعب سوياً، لكن كانت عنجهيته متسيدة، يبقيني خلف ظهره، ويتقدمني. لا أذكره إلا مكشراً في وجهي، ونحن صغار كان يوبخني بشدة إذا رمى إليّ بالكرة ووقعت من يدي. يلقي بالكرة بعيداً، ثم يأمرني أن أجلبها له.

يخيفني من كل شيء. أتذكر الرجل الغريب الذي في رأسه الأصلع حفر ثلاث، كان يمر عبر حارتنا، بين الحين والآخر، ذاهباً إلى بيته. يسير منكساً رأسه، متفادياً الأولاد الصغار الذين يطلقون عليه «أبو قرون» وقد أشاعوا عنه بأنه يخطف الأطفال، لأنه شوهد مرة، وهو يمر من حارتنا، ممسكاً بيد طفل، وفي مرة ثانية، كان يمسك بيد طفل آخر.

كنا نقف جانباً، البنات، والأولاد، يلفنا الفضول والاستغراب، نتابعه بأعين مندهشة، وفي لحظة مباغتة، وحين كان «أبو قرون» يمشي قريباً منا، دفعني منصور في اتجاهه بقوة. سقطت على الأرض، فانفجر ضاحكاً مع الأولاد، وهزأت بي البنات، ولم يتوقف عن ذكر تلك الحادثة في كل مناسبة يجتمع فيها أقاربنا لتكون فرصته للتندر بي.

ما شعرت بحنيته عليّ، كان يسخر من شعري لو رفعته عالياً على شكل ذيل حصان، ويقول بأن وجهي يصبح مشدوداً مثل كرة من جلد، ولو تركت شعري منسدلاً على كتفي، قال بأن خصلاته تشبه عيدان قصب يابسة.

كلامي يثير سخطه، لا شيء يعجبه بي، ولا عمل واحد أقوم به يرضيه. ثقتي بنفسي بدأت تتناقص. كان يحطمني، وكنت أتقزم حتى أصغر ظفر في قدمي، كم شعرت بضآلتي!

كنت أظن بأنني سأجد طريقة ما أخرجه من حياتي، العاصفة التي يطلقها في أثري، وتظل تطاردني، حتى وأنا في المقعد، أشرب قهوتي، لم أكن أشك للحظة واحدة في أنني سأبددها يوماً، سأجعلها تتلاشى كما لو كانت لا شيء.

سأقول له بكل ثقة: أكرهك. لا يوجد ما يجمعنا تحت مظلة واحدة. ما بيننا تأكله الحشرات. أبي أنا قادرة على إقناعه، سيرفض موقفي هذا، لكنني سأكون أعلنت عن نفسي، سيكون قد رآني، سيدهش، سيقول في نفسه أخيراً عادت تشبه أمها، كانت أمها قوية، لكنني لم أفعل غير أن أكون جيدة في الانتظار.

* * * *

أحلام الكثير من الناس تتحطم مثل أواني الخزف، لا يشعر بها أحد، لكنها وهي تتكسر تحت الأقدام، تطلق أطفالها، آلافاً من الأحلام الصغيرة التي تشبه العناكب، تركض بخفة وسرعة في كل اتجاه، تتسلق عباءات النساء، وثياب الرجال، وتتلقف أيدي المارة، وفي قلوب الفتية والفتيات تلبد.

فكرت، الحب حشرة تزحف قريباً منك، تلسعك، وأنت لا تفعل شيئاً سوى أن تحك موضع اللسعة، ثم تمضي في حياتك، لكنك تحتاج لهذه اللسعة، أن تتسلقك كاللبلاب وتلتف حولك. لو اختفى الحب من حياتك، لقضيت عمرك تبحث عنه.

الساعة الحادية عشر صباحاً، أجلس في المكان نفسه وأشاهد التلفزيون. أتشبث بذيل حياتي، بالأمل الأخير المتبقي لي. كل شيء هو في عيني عتيق، وأنا البنت العاشقة، التي قلبها مثل رمانة حمراء، ويسألها: متى سيتوقف هذا الألم؟